﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

المعجزاتُ الَّتي أيَّد اللهُ بها نبيَّه موسى كانت كلّها عظيمةً كبيرةً

بعد أن تحدَّثت الآيتان السابقتان عن إرسال الله تعالى نبيَّه موسى ﷺ مؤيَّدًا بالآيات إلى فرعونَ وملئِه، ووضَّحت أنَّهم قابلوا معجزاته بالسُّخرية والاستهزاء؛ ناسب أن تُبَيِّنَ هذه الآيةُ حالَ تلك المعجزات، وأنَّها كانت ذاتَ شأنٍ كبيرٍ في العظمةِ والفخامةِ، بحيثُ لا يَمْلِكُ المُخاطَبون أمامَها إلّا التَّصديقَ والإيمانَ، لكنَّهم كفروا بها، وأصرّوا على ما هم فيه، فاستحقّوا العذابَ الَّذي أخذهم به اللهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُرِيهِم﴾: (رأي) أصلٌ يَدُلُّ عَلى نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ أو بَصيرَةٍ، والرُّؤْيَةُ: ما رَأتِ العَيْنُ مِن حالٍ حَسَنَةٍ، والعَرَبُ تَقولُ: رَيْتُهُ في مَعنَى رأيْتُهُ، وتَراءَى القَوْمُ؛ إذا رَأى بَعضُهُم بَعضًا، وراءَى فُلانٌ يُرائِي، وفَعَلَ ذَلِكَ رِئاءَ النّاسِ، أي: فَعَلَ شَيئًا؛ لكي يَراهُ النّاسُ[2]، والرُّؤيَةُ: إدراك المرئيِّ بالحاسَّة، وما يجري مجراها، قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: 6 - 7]، وقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 60] وقال أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27][3].

2) ﴿ءَايَةٍ﴾: أصل الآية: العلامة الثّابتة، من قولك: تأيَّيْتُ بالمكان؛ إذا أقمتُ به، وثبتُّ فيه، يُقال: لأجعلنَّك آيةً، أي: علامةً،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 442، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (رأى).

وسُمِّيت الآيةُ من القرآن؛ لأنَّها بمفارقتها كلامَ البشر علامةٌ على صِدق الدَّعوة، وهي في القرآن على وجهين: أوَّلهما: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يُعتبَر بها، وتكون علامةً لصِدقه، وشاهدًا على أنَّ الله قادرٌ على ما يريده، والآخر: العَلامة، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيَّته، والوجهان متقاربان يصلحان في مكان بعضهما[1].

3) ﴿أُخْتِهَا﴾: أصل الأخ: أَخَوَ على وزن فَعَلَ، ودليلُ ذلك أنَّك تقول في التَّثنية: أخوان[2]، ويُستعار في كلِّ مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدّين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودَّة، أو غيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: 156]، أي: لمُشاركيهم في الكفر، والأخت: تأنيث الأخ، جُعِل التّاءُ فيه كالعوض عن المحذوف منه، قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: 28]، أي: أخته في الصَّلاح لا في النَّسب، وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، معناه: من الآية الَّتي تقدَّمتها، وسمّاها أختًا لها؛ لاشتراكهما في الصِّحَّة والإبانة والصِّدق[3].

4) ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾: (أخذ) أصلٌ واحدٌ هو: حَوزُ الشَّيءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، تَقولُ: أَخَذْتُ الشَّيءَ آخُذُهُ أَخْذًا، وهوَ خِلافُ العَطاءِ، أي: التَّناوُلُ[4]، ومن معانيه: الإهلاك والعقاب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: 5]، أي: عاقبتهم، ومثله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102][5]، وهو المقصود هنا.

5) ﴿يَرْجِعُونَ﴾: (رجع) أصلٌ مُطَّردٌ يَدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ، وراجَعَ الرَّجُلُ امرَأتَهُ، وهيَ: الرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ، والرُّجْعَى: الرُّجوعُ[6]، والرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله، ويُقال: رَجَعْتُ عن كذا رَجْعًا، ورَجَعْتُ الجوابَ، قال

(1) العسكري، الوجوه والنّظائر، ص: 91، و92.
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 95.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (أخ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(5) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 40.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).

تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة: 83]، وقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [المائدة: 48]، وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، معناه: يرجعون عن الذَّنب[1]، أو يرجعون عمّا هم فيه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

آياتٌ عظيمةٌ، تترتَّب على الاستهزاء بها العذابُ والإهلاكُ

تُبَيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ كلَّ معجزة من المعجزات، الَّتي أيَّد اللَّهُ تعالى بها نبيَّه موسى ﷺ عندما أرسله إلى فرعون وملئِه، كانت أكبرَ من أختها، بمعنى: أنَّ كلَّ آيةٍ تعدُّ كأنَّها أكبرُ من أختها وزميلتها؛ إذ كلُّ واحدةٍ لكمالِها في نفسِها ووفائِها بالغرض المقصود منها، كأنَّها أكبرُ من زميلتها، فلمّا لم يؤمنوا؛ أخذهم اللَّهُ بالسّنين، وأصابهم بنقص الزَّرع، وقلَّة الضَّرع، وسلَّط عليهم القُمَّل والضَّفادع والدَّم... إلخ، لعلَّهم يرجعون عمّا هم فيه، ويثوبون إلى رشدهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الواو ودلالتها في صدر الآية:

استَخَفَّ فرعونُ وقومُه بالآياتِ وهي كبيرةٌ عظيمةٌ

الأظهر أنَّ الواوَ في قوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها تبيِّن حالَ الآيات الَّتي كذَّب بها فرعونُ وقومُه، وتلقَّوها بالتَّكذيب والاستهزاء، وتوضِّح أنَّها كانت عظيمةً، بحيث لا يستطيعُ أحدٌ من البشر أن ينكرَها، أو يأتيَ بمثلِها، والمعنى: "كان فِرعَونُ وقَومُهُ يَستَخِفّونَ بالآياتِ الَّتي جاءَ بِها موسى في حالِ أنَّها آياتٌ كَبيرَةٌ عَظيمَةٌ"[3].

نكتةُ النَّفي بـ(ما):

لا توجدُ في الآيات الَّتي جاء بها موسى آيةٌ غيرُ عظيمة

(ما) في جملة: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾ هي النّافية العاملة عمل ليس، أوثر النَّفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصها نفْيَ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (رجع).
(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 398، و399.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

في النَّفي من (ليس)، وأوسع استعمالًا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجمل الاسميَّة فحسب[1]، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفيَ إراءة فرعون وقومِه آياتٍ غيرَ كبيرةٍ، وغيرَ مُقيمةٍ للحُجَّة عليهم نفيًا قاطعًا لا حدودَ له.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإراءة مسندًا إلى ضمير العظمة:

الآياتُ الَّتي جاء بها موسى تدفعُ إلى تصديقِه والإيمانِ به

عبَّر النَّظم بفعل الإراءة الموضوع لإدراك الأشياء بحاسَّة البصر في قوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾؛ للدَّلالة على ظهور الآيات ورؤيتهم لها رؤيةً لا مجال فيها للزَّيغ أو الالتباس، ما من شأنه أن يُلزم المتلقِّي الحجَّةَ والتَّسليم، ويدفعه إلى التَّصديق والإيمان بمن أظهرها الله تعالى على يديه، وفي إسناده إلى ضمير المتكلِّم بصيغة التَّعظيم تفخيمٌ للآيات، وإعلاءٌ لشأنها، وبرهانٌ على أنَّها من عند الله بما "له من الجلال والعُلوِّ والكمال"[2]، وبما له من القدرة الَّتي لا يستطيعُ إعجازَها أحدٌ في الأرض ولا في السَّماء.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الإراءة مضارعًا:

استحضارُ الصّورة يساعد المُتلقّي في التَّأثُّر والاستجابة

أوثر التَّعبيرُ بفعل الإراءة مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾؛ لدلالته على تجدُّد الإراءة؛ كلَّما تجدَّد تأييدُ الله نبيَّه موسى بمعجزةٍ من المُعجزات الَّتي تعدَّدت، وتنوَّعت، ولِما يمتازُ به المضارعُ من استحضار الحالة الماضية[3]، الَّتي يدور الحديثُ عنها كأنَّها حاضرةٌ ماثلة، يبدو فيها فرعونُ وقومُه، وهم يشاهدون تلك الآيات آيةً آيةً ومعجزةً معجزةً، فتعمل تلك الصّورةُ عمَلَها في نفوس المتلقِّين من كفّارِ مكَّةَ وعقولِهم، وتثيرهم إلى ألّا يكونوا مثلَ فرعونَ وقومِه في تكذيب الآياتِ والاستهزاءِ بالمعجزات.

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 442.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

مرجعُ الضَّمير في فعل الإراءة ودلالته:

تأكيدُ اختصاص فـرعـونَ وقـومِـه بـالإراءة وإقـامةِ الحجَّة

ضميرُ الغائب المنصوب في الفعل: ﴿نُرِيهِم﴾ يرجع إلى فرعون وقومه، وأوثر التَّعبيرُ عنهم به جريًا على الأصل في البيان عن الاسم الَّذي سبق ذكرُه بالضَّمير، ولما يفيده التَّعبير به هنا من تأكيد حصول الإراءة لهم، واختصاصِهم بها اختصاصًا يحول دون صرفِ الحديث عنهم إلى غيرهم، والمعنى: وما نُري فرعونَ وملأه من آيةٍ إلّا هي أكبرُ من أختِها.

نوع ﴿مِّنْ﴾ وفائدته:

ليس لفرعونَ وقومِه أيُّ عذرٍ في الاستهزاء بالآيات

﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ بيانيَّة تفيد تأكيد كون كلِّ الآيات الَّتي جاء بها موسى من الكِبَرِ والعظمةِ بمكان، وأنَّه ليس فيها واحدةٌ غيرَ كبيرةٍ أو غيرَ عظيمةٍ.

الغرضُ من تنكير: ﴿ءَايَةٍ﴾:

جيء بالاسم المجرور: ﴿ءَايَةٍ﴾ نكرةً منوّنًا؛ لِما يفيدُه تنكير الاسم الواقع في سياق النَّفي وتنوينه من تأكيدِ عمومِ النَّفي وشمولِه كلَّ الآياتِ الَّتي جاء بها نبيُّ اللّه موسى.

نوع ﴿إِلَّا﴾ ولطيفة التَّعبير به:

تكذيبُ فرعونَ وقومِه بالآياتِ راجعٌ لمكابرتهم وعنادِهم

﴿إِلَّا﴾ في الآية حرف استثناء، وما بعدها في موضع الحال، ما يعني: أنَّ الاستثناء من الأحوال[1]، وفي التَّعبير بحرف الاستثناء نوعٌ من الإثارة والتَّشويق إلى الآتي بعده، حتّى إذا ورد؛ ثبت في نفس المتلقّي، وتأكَّد لديه بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أنَّ جميعَ الآيات الَّتي جاء بها موسى متناهيةٌ في العظمة والكِبَر، ومقيمةٌ للحجَّة على فرعون وقومه، ودافعةٌ لهم إلى التَّصديق والإيمان، وأنَّه لا وجهَ لتكذيبهم بها وضحكِهم منها، وأنَّهم ما كذَّبوا بها لضعفِها وحقارتِها، وإنَّما "لمُكابرتِهم وعنادِهم"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

نوعُ القصر وبلاغته:

الآياتُ الَّتي يؤيِّد اللهُ تعالى بها رسلَه لا تكون إلّا عظيمةً كبيرةً

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قصرٌ موصوفٍ على صفة، طريقُه النَّفي والاستثناء، قَصَر فيه النَّظمُ حالَ الآيات الَّتي جاء بها موسى على كونها كبيرةً عظيمةً، تدفع مَن يراها إلى التَّصديق والإيمان، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، أو قصرًا إضافيًّا بغرض قلبِ ما قد يظنُّهُ الكفّارُ، ويتوهَّمونه من أنَّ الآيات الَّتي جاء بها موسى أثارت ضحك فرعون وقومِه وسخريتَهم لضعفها وهوانِها.

وأوثر النَّفيُ والاستثناء طريقًا للقصر؛ لما يمتاز به من الحسم والتَّأكيد الَّذي يناسب المخاطَبَ المُنكِرَ، أو الشّاكَّ في كون الآيات عظيمةً، والظّانَّ أنَّها لم تكن حاملةً على التَّصديق والإيمان، فيتمُّ إبطالُ ذلك الظَّنِّ من خلال إثبات أنَّ جميعها متماثلٌ في العظمة والكِبَر، بعد نفي أيِّ حالٍ آخر عنها نفيًا قاطعًا؛ إزالةً للشَّكِّ، وإثباتًا لكِبْر فرعون وقومِه وغرورِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

كلُّ آيةٍ يصحُّ أن تكون بُرهانًا على صدق نبيِّ الله فيما يُبلغه عن ربِّه

أوثرَ التَّعبيرُ في الكلام الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ بالجملة الاسمية: ﴿هِيَ أَكْبَرُ﴾؛ لما تفيده من تقوية عِظَم الآيات وتأكيدِ كِبَرِها؛ لدلالتها على الثُّبوت والدَّوام، والضَّمير المنفصل فيها ﴿هِيَ﴾ عائدٌ إلى النَّكرة المجرورة: ﴿ءَايَةٍ﴾، وفيه دلالة على أنَّ كلَّ آيةٍ من الآيات الَّتي أتى بها موسى عليه السلام يصحُّ أن تكون برهانًا منفردًا على صِدقه، ناطقًا بأنَّه رسول من عند الله، مثيرًا مَن يراه، ويشاهدُه إلى التَّصديق والإيمان.

نكتةُ التَّعبير باسم التَّفضيل:

عادةُ الرُّسل التَّدرُّجُ في إراءة المخاطَبين الآياتِ بسببِ إصرارِهم على التَّكذيب

قولُه تعالى: ﴿أَكْبَرُ﴾ اسمُ تفضيلٍ، خبرُ الضَّمير المنفصل في جملة الحال، أوثر التَّعبير به لأحد معنيين:

أوَّلهما: الدَّلالة على أنَّ كلَّ آيةٍ من الآيات - الَّتي جاء بها نبيُّ الله موسى - كانت أكبرَ وأعظمَ من الَّتي سبقَتْها، وأدلَّ على

صِدقه في البلاغ عن ربِّه من أختها الَّتي تقدَّمَتْها، ما يعني أنَّه تدرَّج في إراءتهم الآيات من الأدنى إلى الأعلى؛ جريًا على عادة الرُّسل في ذلك؛ بسبب "إصرارهم على الكفر وعدم ارتداعهم عن الاستهزاء والتَّكذيب"[1].

والآخر: أن يكون التَّفضيل عامًّا، والمراد هو التَّأكيد على أنَّ كلَّ الآيات الَّتي جاءتهم متناهيةٌ في العظمة والكِبَر، وأنَّ كلَّ واحدة منها تصلح دليلًا منفردًا على صِدقه، وأنَّهنَّ موصوفات بالكِبَرِ، لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء الَّتي تتلاقى في الفضل، وتتفاوت منازلُها فيه التَّفاوتَ اليسير، أن تختلف آراءُ النّاس في تفضيلها، فيفضل بعضُهم هذا وبعضُهم ذاك، فعلى ذلك بَنى النّاسُ كلامَهم ... وقد فاضلت الأنماريَّةُ بين الكَمَلَة من بنيها، ثمَّ قالت: لمّا أبصرتْ مراتبَهم متدانيةً قليلةَ التَّفاوت: ثكلتُهم؛ إن كنت أعلمُ أيُّهم أفضلُ، هم كالحلْقَةِ المفرغة لا يُدرى أين طرفاها[2]، وعلى ذلك "فالمَعنَى: وما نُرِيهِم مِن آيةٍ إلّا وهيَ آيةٌ جَليلَةُ الدَّلالَةِ عَلى صِدق الرَّسول ﷺ تَكادُ تُنسيهِمُ الآيَةَ الأُخرى"[3].

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في: ﴿مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في: ﴿مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ هي البيانيَّة الَّتي توضِّح المُفَضَّلَ عليه، وتؤكِّد كِبَر كلِّ آيةٍ من الآيات الَّتي جاء بها موسى، وتقوِّي كفايتَها في إقناع فرعونَ وقومِه بأنَّه رسولُ الله.

لطيفةُ التَّعبير بلفظ: ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾:

عبَّر النَّظمُ عن الآية بلفظ: ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على تماثُلها وتساويها في القوَّة والإبانة والبَرْهَنَةِ على صِدق نبيِّ الله، وأنَّه لا

الآيـــاتُ الَّـتـي جـاء بها موسى تتساوى وتتماثلُ في البرهنةِ على صِدقِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 255، و256.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.

فرقَ بينها في ذلك، فهنَّ موصوفاتٌ بالكِبر لا يكدن يتفاوتن فيه، على معنى أنَّ كلَّ واحدة لكمالها في نفسها إذا نظر إليها؛ قيل: هي أكبر من البواقي لاستقلالها بإفادة المقصود[1]، أو يكون بينها ما بين الإخوة والأخوات في الاختلاف والتَّنوُّع.

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾:

الآياتُ الَّتي جاء بها موسى تتآزر وتتعاضد في تصديقه

في تعبير البيان عن الآية بوصف ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾ استعارة تصريحيَّة؛ إذ الأصل الَّذي يرجع إليه هذا المجاز: (وما نريهم من آية إلّا هي أكبر من الآية السّابقة عليها)، فاستُعير لفظ ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾ للآية بعد تشبيهها بها، وتنوسي التَّشبيه، وادُّعي أنَّ المشبَّه جزء من المشبَّه به، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، الَّتي تبرز ما بين الآيات الَّتي جاء بها نبيُّ الله موسى إلى فرعون وقومه مِن تماثُلٍ في القوَّة والوضوح، وتَعاضُدٍ ومُؤازرةٍ في دعمِه والبرهنةِ على كونه رسولًا من عند الله إلى فرعون وقومه، وأنَّ فرعونَ وقومَه هم الَّذين استكبروا، وعاندوا.

السِّرُّ البلاغيُّ في حذف الصِّفة:

حـذْفُ الصِّفةِ مـؤذنٌ بتساوي الآيـــةِ مـع سـابـقـتـهـا ولاحـقـتـهـا في العظمة والكِبَرِ

اقتصر النَّظم على ذكر الموصوف في قوله: ﴿مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾، وتمَّ حذفُ الصِّفة؛ لدلالة السِّياق عليها، وفهمها من المقام الَّذي جاء فيه البيان؛ إذ التَّقدير: إلّا هي أكبر من أختِها السّابقةِ، وهو حذفٌ مؤذنٌ هنا باستواء كلِّ آية مع سابقتها ولاحقتها في الكبر والعظم، لدلالته على عموم التَّساوي وعدم حصره في السّابقة وحدها، وهو حذْفٌ شائعٌ في البيان القرآنيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]؛ إذ التَّقدير: كلُّ سفينة سليمة، وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [البقرة: 71]، أي: بالحَقِّ الواضحِ البَيِّنِ[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 87.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 13/ 93.

وجهُ كون الجملةِ من التَّعبير الجامع المانع:

كلامُ اللهِ تعالى كـلُّـه جـامـعٌ مـانـعٌ، والآيـاتُ كلُّها متناهيةٌ في العظمة

يُعدُّ قولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ من الكلام الجامع المانع، شأنُه شأنُ كلامِ اللّه تعالى كلِّه؛ لأنَّ معناه: أنَّ كلَّ واحدة من هذه الآيات، إذا أفردتَها بالفكر؛ استغرقت عظمتُها الفكرَ وبهرَتْه؛ حتّى يجزمَ أنَّها النِّهاية، وأنَّ كلَّ آية دونها، فإذا نقل الفكرة إلى أختها؛ استوعبت أيضًا فكرَه بعِظَمِها، وذَهَل عن الأولى، فجزم بأنَّ هذا النِّهاية، وأنَّ كلَّ آية دونها، والحاصل أنَّه لا يقدر الفكرُ على الجمع بين آيتين منهما؛ لتتحقَّق عنده الفاضلةُ مِن المفضولة، بل مهما أفرده بالفكر؛ جزم بأنَّه النِّهاية، وعلى هذا التَّقدير يجري جميع ما يردُ من أمثاله[1].

لطيفةُ العطف بالواو:

العـذابُ الَّـذي نـزل بـفـرعـونَ وقـومِـه مِـنَ الآيـاتِ الـدّالَّـةِ على صِـدقِ نبيِّ اللهِ موسى

جاءت جملة: ﴿وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ معطوفةً على قوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ بالواو لاتِّفاق الجملتين في الخبريَّة، وثمَّ لطيفةٌ بلاغيَّةٌ تتمثَّل في أنَّ العذابَ الَّذي أخذهم اللّهُ تعالى به يعدُّ آيةً من الآيات[2]، الدّالَّة على صِدق نبيِّ اللّه موسى، والمؤكِّدةِ عنادَ فرعون وقومِه واستكبارَهم، ما يعني أنَّ الجملة عُطِفت على ما قبلها عطفَ الخاصِّ على العامِّ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الأخذ ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير العظمة:

العـذابُ الَّـذي نـزل بـفـرعـونَ وقومِه لا يُقادر قدرُه، ولا يُمكنُ دفعُه أو الفرارُ منه

عبَّر البيانُ عن نزول العذابِ بفرعونَ وقومِه بفعل الأخذ في: ﴿وَأَخَذْنَـٰهُم﴾؛ للدَّلالة على قوَّة العذاب وشدَّتِه واتِّصافه بالقهر والغلبة[3]؛ إذ ترتَّب عليه استئصالُهم وهلاكُهم، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على تحقُّقِ وقوعه من غير شكٍّ أو ارتياب، وفي إسناده

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 13/ 93.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 443.

إلى ضمير الله تعالى بصيغة التَّعظيم دلالةٌ على أنَّه عذابٌ لا يُقادَر قَدْرُه، ولا يستطيع أحدٌ دفعَه أو الفرارَ منه.

نكتةُ التَّعبير عن المفعول بالضَّمير:

قابلوا الآياتِ بالتَّكذيب، فقوبلوا بالبلاء والتَّعذيب

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن مفعول الأخذ بضمير الغائب المنصوب في قوله: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظّاهر الَّذي سبق ذكره بالضَّمير، ولِما يفيده التَّعبيرُ به من تعيين المفعول تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى أحدٍ غيرِه، ما يعني: أنَّ الَّذين أخذهم اللّهُ بالعذاب هم فرعونُ وقومُه الَّذين كذَّبوا الآياتِ الَّتي جاء بها موسى، وقابلوها بالسُّخرية والاستهزاء، على الرَّغم من كِبَرِها وعِظَمِها.

نوعُ الباءِ ودلالتها في: ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾:

تأكيدُ أنَّ العذابَ الَّذي نزل بفرعونَ وقومِه كان غايةً في القوَّةِ والشِّدَّةِ

الباء في قوله: ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ للاستعانة، كما تقول: خذ الكتاب بقوَّة، أي: ابتدأناهم بالعذاب قبل الاستئصال؛ لعلَّ ذلك يفيقهم من غفلتهم[1]، وقد يكون التَّعبير بالتَّسبُّب هو اللّائق مع إسناد الفعل إلى الله جلَّ شأنُه، قال المراديُّ: "والنَّحويّون يعبِّرون عن هذه الباء بالاستعانة، وآثرت على ذلك التَّعبير بالسَّببيَّة، من أجل الأفعال المنسوبة إلى الله تعالى؛ فإنَّ استعمال السَّببيَّة فيها يجوز، واستعمال الاستعانة لا يجوز"[2].

نوع (ال) ودلالتها في: ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾:

الحديثُ عن نزول العذابِ بفرعون وقومِه فيه تعريضٌ بكفّارِ مكَّةَ وتهديدٌ لهم

(الـ) في قوله: ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ لتعريف العهد؛ إذ المقصود به العذاب الدُّنيويُّ الشَّديد الَّذي ورد ذِكرُه في مواضع أخرى من كتاب الله، وهو: الأخذ بالسِّنين والطّوفان والجراد والقُمَّل والضَّفادع والدَّم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.
(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 39.

وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ [الأعراف: 133][1]، وفيه تعريضٌ بكفّار مكّة؛ إذ أصيبوا بسني القحط[2]، وتحذيرٌ لهم من إمكان أخذهم كما أُخِذَ فرعونُ وقومُه؛ إن هم نهجوا نهجهم، فأصرّوا على الكفر باللّٰه تعالى وتكذيب رسوله، ولم يتراجعوا.

علَّةُ فصل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا قَبْلَه:

جاءت جملة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال الَّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤال أثارَتْه الجملةُ الأولى في نفس المتلقّي عن أثر أخْذِ فرعونَ وقومِه بالعذاب المتعدِّدِ المتنوِّعِ، فتأتي الجملةُ الثّانية؛ لتوضِّح أنَّ أثرَ ذلك ونتاجَه هو الأملُ والرَّجاءُ في أن يتَّعظوا، ويرجعوا عمّا هم فيه، ومِن ثَمَّ فُصِلت عن سابِقتِها، كما يُفصلُ الجوابُ عن السُّؤال.

يري الله تعالى عباده آياته؛ ليتَّعظوا، وينزجروا

نكتةُ التَّعبير بحرف التَّرجّي:

عبَّر النَّظمُ بالحرف: (لَعَلَّ) المفيد للتَّرجّي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنَّ الَّذي يغلبُ على الظَّنِّ، ويُتوقَّع حصولُه من أيِّ عاقلٍ رشيدٍ عندما يتواتر عليه العذابُ أن يتأمَّل حالَه، ويعرف خطأه، فيتراجعَ عنه، ويثوبَ إلى طريق الحقِّ، ولكنَّ فرعونَ وقومَه لم يفعلوا ذلك، وأصَرّوا على العنادِ والاستكبارِ، والمعنى: "ليكون حالُهم عند ناظرهم الجاهلِ بالعواقب حالَ مَن يُرجى رجوعُه"[3].

حقيقٌ بمن يرى الآيات أن يؤمن بها، ويرجع عن غيِّه

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿يَرْجِعُونَ﴾:

في تعبير القرآن بالفعل ﴿يَرْجِعُونَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّه فيها الاعترافُ والإذعانُ بالرُّجوع، بجامع العود في كلٍّ، ثم استُعير الرُّجوعُ للاعتراف والإذعان[4]، بعد تناسي التَّشبيه، وادِّعاء أنَّ

تصويرُ فرعون وقومه في صورة المُنصرفين إلى طريق الجادَّة والصَّوابِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 86، و87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 443.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.

المشبَّه فردٌ من أفراد المشبَّه به، ثمَّ اشتُقَّ منه ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ بمعنى: يذعنون، ويعترفون بخطئهم، ويؤمنون بموسى وما جاء به، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تصوِّر فرعونَ وقومَه في صورة المنصرفين من طريقٍ خطأ، كانوا يسيرون فيه إلى طريق الجادَّة والصَّواب الَّذي يوصِّلُهم إلى المراد.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الأخْذ والإهلاك:

الأخذُ أصلُه: الجمعُ، ومن معانيه: العقاب والقتل، وفي التَّعبير به دلالة على قوَّة العقاب وشدَّته - كما سبق بيانه - أمّا الهلاك والإهلاك؛ فقد يُعَبَّر به عن انتهاء الأجل، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر: 34]، أو افتقاد الشَّيء عنك، وهو عند غيرك موجود، كما في قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29][1]، ولمّا كان البيانُ قاصدًا إلى تحذير مشركي مكَّة من الإصرار على الكفر بالله تعالى وتكذيب رسوله؛ ناسب التَّعبير بمفردة (الأخذ) الدّالَّة على شدَّة العقاب وقوَّة العذاب الَّذي أنزله الله بفرعون وقومه، لفعلهم ذلك مع نبيِّ الله موسى؛ تهديدًا للمشركين وتحذيرًا لهم، بخلاف مفردة الإهلاك الَّتي قد يُفهم منها أنَّهم ماتوا بلا عذابٍ، وهو ما يدفع الكفّارَ إلى مزيدٍ من الاجتراء والكفر.

الأخذ عقابٌ بالقتل والاستئصال، والهلاك قد يكون موتًا بلا عذاب

الرُّجوع والتَّوبة:

الرُّجوع يكون إلى مُنتَهى المَقْصِد ولغيره، يُقال: رَجَعَ إلَى بعض الطَّريق، وهو أيضًا: المصير إلى الموضع الَّذِي قد كانَ فِيهِ قبل[2]، والتَّوبَة: النَّدَم على الخَطِيئَة مَعَ العَزْم على ترك المعاودة[3]، ولمّا كان

الرُّجوع عودٌ إلى الفطرة السَّليمة، والتَّوبة ندمٌ لا يتأكَّد معه الإقلاع

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 338.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 303.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235.

القصد من تواتر العذاب على فرعون وقومه أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى ربِّهم؛ ناسب التَّعبير بفعل (الرُّجوع) الَّذي هو أعمُّ من التَّوبة، والَّذي يُقصد منه هنا العودة إلى أوَّل أمر الإنسان من الفطرة النَّقيَّة، والنَّشأة السَّليمة الَّتي خلق الله تعالى النّاس عليها، والَّتي لا مردَّ بعدها إلى الشِّرك، بخلاف التَّوبة الَّتي لا ضمان معها لعدم العودة إلى الشِّرك.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"